العرب
الأحد 2020/06/21
السنة 43 العدد 11738

ثلاثة رساميين من المغرب..

المسافر في بريّته والمقيم في مرآته والمغرم بإيقاعاته

منذ خمسينات القرن الماضي كان المشهد التشكيلي المغربي غاصا بالرسامين الذين تميزوا بغزارة إنتاجهم وتنوع أساليبهم واختلاف منطلقاتهم النظرية وطرقهم في التفكير في الرسم. غير أن هناك شيئا واحدا كان يجمعهم ويوحي بأنهم كانوا يسعون إلى الوصول إلى هدف واحد. فيما يلي نلقي نظرة على عوالم ثلاثة من الرساميين المغاربة.

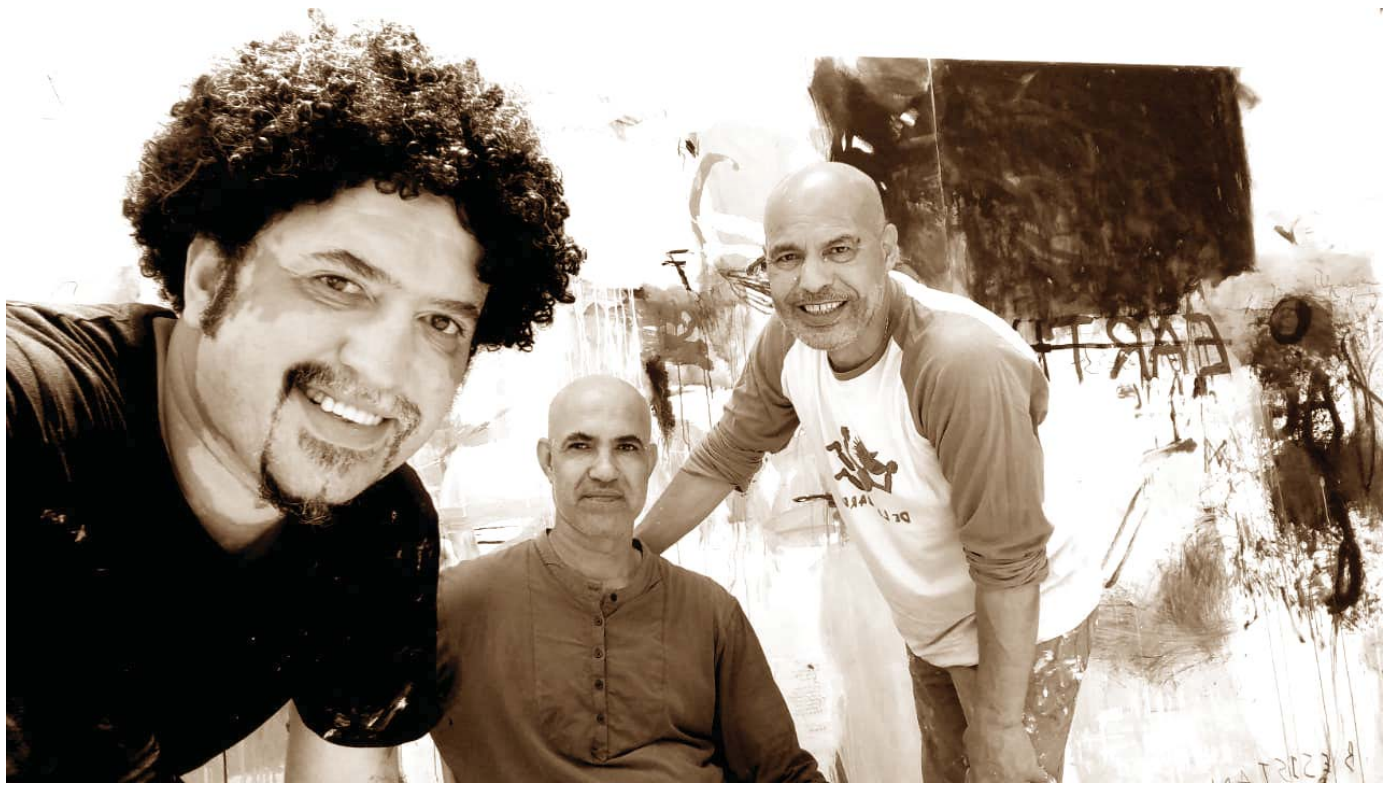

عزيز أزغاي وعبدالله الهيطوط وفؤاد شردودي لوحاتهم تشبه الشعر

فاروق يوسف

كانت الحداثة الفنية في المغرب مزيجا من تلق واع وعميق لتحولات الفن في أوروبا ونزعة حرفية كانت وسيلة لمحاولات تمثل مفردات وصيغ المعالجات الجمالية التي انطوت عليها الفنون اليدوية الشعبية كالنسيج والخشب وصناعة الجلود. وهو ما يمكن تلخيصه بعبارة واحدة هي "حياتان في حياة واحدة".

في عقد السبعينات دخلت مؤثرات جديدة على الخط. وكما أرى فإن وشائج القربى التي كانت تتنامى بين الفنّين العراقي والمغربي فتحت الباب للتعرف على تجربة الرسام العراقي شاكر حسن آل سعيد (1925 ـ 2004) من خلال الإنصات إلى بياناته المتمردة "البيان التأملي" و"البعد الواحد" و"الحرية في الفن" إضافة إلى معالجاته للسطح التصويري التي انطلقت في البدء من مبدأ استلهام جماليات الحرف العربي.

من وجهة نظري كان المغاربة أكثر قربا من نهج آل سعيد الفكري والأسلوبي من العراقيين. ذلك لأنهم سرعان ما طوّروا تجربته ولم يقفوا عند حدودها. ساعدهم في ذلك اطلاعهم المباشر على الأصل الأوروبي المتمثل بتجربة الفنان الإسباني أنتونيو تابيث.

> ربما لا يتذكر شردودي اليوم مَن قاد الآخر إلى الإيقاع ومَن علّم الآخر فنّ نسيان الواقع، الشاعر أم الرسام؟

الرسامون الثلاثة الذين اخترتهم من بين عدد كبير من الرساميين المغاربة الذين يقفون اليوم في مقدمة المشهد هم ورثة تلك القطيعة. لقد وجدوا المائدة جاهزة أمامهم وما كان عليهم أن يلتفتوا إلى الوراء. لقد حُلت مشكلات كثيرة غير أن زمن الحرية سيكون مكلفا. هناك حقائق تتعلق بالرسم صارت مواجهتها هي المقياس. فحين نصفهم برسامي عصر حديث فذلك معناه أنهم صناع ذلك العصر.

فؤاد شردودي وعزيز أزغاي وعبدالله الهيطوط هم أبناء جيل متمرد وضعه القدر في مواجهة الحرية. استحقاق يقف الرسامون الثلاثة بين مقاومة عصفه والمضي به إلى الهاوية.

العيش في الرسم

حين يكون الرسم عادة فإن النظر إلى العالم يكون مليئا بالمفاجآت الجمالية. هناك جمال في كل لحظة نظر. وهناك ما لا يُحصى من المسرات. حينها يكون من اليسير على المرء أن يكون رساماً. فكل شيء يصلح أن يكون موضوعا للتأمل. كل شيء يكتسب نضارة إذا ما امتدت إليه يد الرسام الذي ينصت إلى أصوات الأشياء من حوله.

هذا ما يفعله المغربي عبدالله الهيطوط وهو يحتفي بكل شيء من حوله. يمحو ويضيف. يركّب ويفكّك. يلصق ويزيل. مطاردا "أناه" التي توزعت بين المشاهد التي شكلت نوعا من الذكريات الشخصية. فالرسم بالنسبة إليه هو نوع من ممارسة العيش. إنه يرسم ليحيا.

الحياة كما نُحب. الحياة كما تُحب. تستحق أن تكون موضوعا للرسم. وهي في الوقت نفسه تتحول إلى مغامرة اكتشاف. يعيد الرسام اكتشاف الحياة على الورق لتفاجئه بسحرها. تظهر المشاهد التي مرت عابرة.

لا يتعلق الأمر بمحاولة استحضار بقدر ما يعبّر عن رغبة ملحة في المساءلة حين تقوم عناصر الرسم بالتنقيب بحثاً عن دلالة اختطفها مرح أو حزن كامنان. لذلك فإن الهيطوط ليس من الرساميين الذين ينتظرون الإلهام. إنه يباشر عمله في أيّ لحظة كما لو أنه يعرف ما يريد القيام به من غير أن يكون كذلك.

ليس هناك من شيء يعيقه عن الرسم. علاقته بالرسم هي أشبه بعلاقة المرء بفكرته عن حواسه. وهو ما ينبئ عن تجريد هائل يعيد تنظيم العلاقات بين ما يُرى من الألم وما يظل خفيا.

أشبه بمَن يكتب مخطوطة، تبقى أسطرها التي لم تُكتب بعد عالقة بخيال زمنها يلاحق الهيطوط عناصر لوحته. إنه لا يزيل عنها الغبار بل يجدها ناصعة وهي تومئ له بحذر وسط الحفلة التي يقيمها.

الهيطوط رسام لا يبالي بما ينتهي إليه من نتائج. تهمه البدايات والمنحى الذي تأخذه حياته وهو يمارس الرسم. الطريق لديه أهم من الهدف. فهو لا يرغب في الوصول إلى بضاعة متقنة الصنع من أجل تسويقها. ولد عبدالله الهيطوط عام 1971 في لالة ميمونا بالمغرب. درس الفلسفة عام 1993 وعمل في التدريس. اهتم كثيرا بإقامة ورش فنية للأطفال وهو ما ألقى بظلاله على تجربته الفنية. عام 2011 بدأ بإقامة معارضه الشخصية إضافة إلى المعارض المشتركة التي كان أهمها "ورد أكثر" الذي أقامه عام 2018 مع الفنانين عزيز أزغاي وفؤاد شردودي تحية للشاعر الراحل محمود درويش.

وبالرغم من أن فن الهيطوط يتضمن الكثير من التجليات الشعرية فإنه يتلمس طريقه إلى الإلهام عبر تماسه بما هو مادي وهو ما جعله يقف بين عالمي الإسباني أنتوني تابيس والأميركي باسكيات محتفيا بما تطرحه المواد من حلول جمالية وبما تعبر عنه تلك المواد من حيوية تقرّب المخفي من صلابته غير المتوقعة.

كان الهيطوط مسحورا دائما بكفاءة أصباغه وقدرتها على صنع الفوضى وهو ما تعلمه من رسوم الأطفال، لكن بحذر شديد. فهو يحتاط من أجل أن لا يسمح لتلقائيته بالسيطرة على مهارته التي هي عدته في صنع عالمه الذي يسعى إلى أن يكون مرآة لأفكاره. لا يرسم الهيطوط مثل الأطفال ولا يتشبّه بهم غير أنه ينظر إلى النتائج التي تنتهي إليها رسومهم بإجلال، كونهم كائنات معفية من المعاني.

"التجريدية سمحت لي بتغيير طريقة النظر إلى الأشياء. أي بالتفكير ببساطة وحرية بكثير من العفوية. لست تجريديا بالمعنى الكامل للكلمة" يقول الهيطوط. ويضيف "إذا كانت التشخيصية تركز على المظهر فإن التجريدية لا تقف عند القشرة بل تغوص إلى العمق. أنا رسام تجريدي بهذا المعنى على الأقل ففي القاع يكمن الجمال".

الشاعر الرسام أو كلاهما

غالبا ما يتميز الحديث عن العلاقة بين الرسم والشعر بالكثير من المجانية والإرسال والغموض وعدم الثقة. ذلك يمكن توقعه إذا أتى ذلك الحديث من خارج التجربة التي يحكمها الإيقاع. فالإيقاع حين يغيب عن الجدل يقع ذلك الجدل في منطقة تجريدية، لا شيء يُمسك فيها. أما حين يتعلق الأمر بالشعراء الذين مارسوا الرسم من داخله فإن كل شيء يتسم بالحيوية والدفء والكثافة والعمق والوضوح ربما. الشاعر الفرنسي هنري ميشو هو المثال الأبرز في ذلك المجال. كان ذلك الشاعر المهم مخترعا في مجال الرسم. فـ"التبقيعية" التي اخترعها ما كان لها أن تظهر لولا الشعر. إنها ابنة الشعر.

المغربي فؤاد شردودي هو ابن الشعر الذي تعرف على الرسم باعتباره أثرا شعريا. ذلك رسام لا ينسى كونه شاعرا في كل لحظة إلهام بصري. لذلك يمكن وصفه بالشاعر الرسام وليس بالشاعر والرسام.

ربما لا يتذكر شردودي اليوم مَن قاد الآخر إلى الإيقاع ومَن علّم الآخر فن نسيان الواقع، الشاعر أم الرسام؟ إنه سؤال لم يعد له معنى.

فشردودي يرسم لأنه شاعر وهو يكتب الشعر لأنه رسام. وهو عن طريق الرسم والشعر يعيش حياة مترفة يغمرها الإيقاع. إنه ابن اللحظة التي يشتبك فيها نبل الاثنين برفعة الحياة. شيء لا يقع بقصد مسبق. فالفنان لا يسخر حدثا في خدمة حدث آخر. بمعنى أن الشعر لا يخدم الرسم والعكس صحيح أيضا.

اللغة التي تعلم شردودي أسرارها هي لغة الألغاز وليست لغة السرد. إنها اللغة التي لا تقدم نفسها باعتبارها وسيلة تعبير. صحيح أن الرسام والشاعر وهما الشخص نفسه يتصلان من خلالها بنا غير أنها تشكل في الوقت نفسه واحدا من أعظم أسباب القطيعة مع ثقافتنا. سنكون مستعدين لمواجهة عصف متمرد قادم من جهة مجهولة.

بالنسبة إليه صار اللعب بالكلمات واللعب بالأشكال هما الشيء نفسه. ذلك لأنه في الحالين إنما يقوم بإعادة خلق الفكرة وليس التقاط تجلياتها المحتملة. إنه ينظر إلى الأشياء انطلاقا من نقصها. وهو ما سيلقي على الشعر والرسم مسؤولية القيام في البحث عن جماليات ذلك النقص وليس تعويضه كما يُخيّل للبعض. فالشاعر والرسام يشيدان عالمهما، لكن في منطقة مجاورة.

شردودي رسام تجريدي غير أنه يصر على إجراء حوار تفاعلي مع مفردات الطبيعة والبيئة. إنه يفكر في الأثر. لقد فاتني أن أحدثه عن صديقي الصيني الذي عرض عليّ قبل ربع قرن أن أعلمه رسم الوردة مقابل أن يعلمني اللغة الصينية. ذكرتني رسومه بذلك الرجل الذي اشترط عليّ أخيرا أن أعلمه كيف يصل إلى رسم عطر الوردة. ما يفعل شردودي هو نوع من ذلك القبيل. ولد فؤاد شردودي عام 1978 في مدينة سلا. أكمل دراسته الجامعية في كلية الآداب. لم يتعلم الرسم أكاديميا بل استند في ذلك إلى نزعة شخصية قادته في وقت مبكر إلى أن يتعلم لغة الرسم إلى جانب لغة الشعر. أصدر الكتب الشعرية التالية: "السماء تغادر المحطة" (2008)، "أنا غير مسخر" (2013)، "ماسكا ذيل كوكب" (2014)، "من باب الاحتياط" (2016).

في الرسم بدأ عروضه عام 2001 في مدينته سلا. بعدها صار يشارك في لقاءات فنية مغربية وعربية ويقيم معارض شخصية في مدن مغربية مختلفة إلى أن أقام معرضا شخصيا في باريس عام 2016. غالبا ما يتميز الحديث عن العلاقة بين الرسم والشعر بالكثير من المجانية والإرسال والغموض وعدم الثقة. ذلك يمكن توقعه إذا أتى ذلك الحديث من خارج التجربة التي يحكمها الإيقاع. فالإيقاع حين يغيب عن الجدل يقع ذلك الجدل في منطقة تجريدية، لا شيء يُمسك فيها.

"ورد أكثر" هو عنوان المعرض الذي أقيم عام 2018 برعاية مؤسسة صندوق الإبداع والتدبير وبيت الشعر في المغرب يمثل منعطفا مهما في مسيرة شردودي الذي شارك مع زميليه عبدالله الهيطوط وعزيز أزغاي في توجيه تحية من نوع خاص إلى الشاعر محمود درويش.

مبدع بثلاثة رؤوس

تجعلك تجارب عدد من الفنانين من المغاربة في حالة استعداد للقبول بمنطق اللغة التي تتوزع بين الشعر والمعالجة البصرية. هناك جهد كبير استغرق عقودا لنصل إلى نتائج تبدو اليوم مثمرة وإيجابية. فالعلاقة ليست ملفقة بالرغم من غموضها. هناك شعراء أصيلون هم في الوقت نفسه رسامون حقيقيون وهم في الحالين لا يقيسون المسافة بين فن وآخر الأدوات التقليدية. غير أن عزيز أزغاي يبدو ظاهرة استثنائية في ذلك المجال. فهو شاعر ورسام وهو في الوقت نفسه ناقد فني، درس النقد أكاديميا. تلك مشكلة. كيف؟

> الهيطوط لا ينتظر الإلهام وشردودي يرسم لأنه شاعر ويكتب الشعر لأنه رسام أما أزغاي فهو مبدع بثلاثة رؤوس

لقد نجح المغاربة في التقريب بين لغتي الشعر والرسم، حيث صار مقنعا أن نتحدث عن شاعر رسام أو رسام شاعر. غير أن الناقد لا بد أن يقف في مكان آخر. مكان يوصد أبوابه على نوع محكم من اللغة. وهي لغة يغلب عليها منطق مختلف، تمتزج من خلاله المساءلة بالرصد من غير أن يتخلّيا عن عنصر المكاشفة الجارح. إن تكن ناقدا فنيا فإن ذلك يوجب عليك أن ترى الظاهرة الفنية من داخلها ومن خارجها في الوقت نفسه وهو ما يحتم عليك أن تكون حرا في الحركة. وهو ما لا يتأتى للرسام أن يفعله.

الغريب في ظاهرة أزغاي أنه رسام ممتع وهو شاعر حساس وهو في الوقت نفسه يمتلك من الرؤية الفكرية والفنية ما يؤهله لأن يكون ناقدا. من وجهة نظري فإن الموهبة في ذلك المجال لا تكفي. هناك قدر عال من الحرفة هو ما جعل أزغاي قادرا على أن يحوّل طريقته في التفكير الفني إلى نهج نقدي لكي يكون كل شيء تحت السيطرة. في حالته فإن أزغاي ينتقل من موقع إلى آخر بعد أن يقيس المسافة التي تفصل بين الموقعين. فالناقد سيكون دائما شخصا آخر.

هل ستضطرب المسافة في المستقبل؟ لا أريد هنا أن أخيّب أمل أزغاي وأنا هنا أحتفي به رساما وشاعرا وأيضا ناقدا فنيا، غير أنني أعرف أن الأمر صعب. بل في غاية الصعوبة. ربما كانت موهبته استثنائية. ذلك مؤكد. ومن المؤكد أن احترافه كان على قدر عال من الصرامة. غير أن فتوحاته البصرية في الرسم ولمعان لغته في الشعر سيقفان مثل علامتي استفهام أمام الناقد الفني.

ترى ما الذي يفعله ذلك الرجل الغريب في المحترف؟ تلك بداية غير موفقة لمقال عن رسام وشاعر ناجح أظنه سيجد حلولا لكثير من الأسئلة.

عزيز أزغاي هو ابن الدار البيضاء. ولد فيها عام 1965. درس التاريخ ومن ثم الأدب والنقد المقارن، بعدها واصل دراسته الفنية إلى أن حصل على شهادة الدكتوراه في النقد الفني وكان موضوعها ""التشكيل وخطاباته: قراءة في الخطاب النقدي حول الفن التشكيلي في المغرب". بعدها عمل في تدريس تاريخ الفن.

عُرف في البدء باعتباره شاعرا وأصدر الكتب الشعرية التالية "لا أحد في النافذة" (1998)، "كؤوس لا تشبه الهندسة" (2002)، "رصاص الموناليزا"، "أكبر من قميص" (2009)، "الذين لا تحبهم" (2010)، "أسرى على قماش" (2015)، وأخيرا "حانة الذئب".

"جاذبية الفراغ في التصوير العربي المعاصر" هو عنوان كتابه الفائز بجائزة الشارقة للنقد التشكيلي عام 2019. أقام أول معارضه الشخصية في الرباط عام 2008 أما ظهوره في المعارض الجماعية فيعود إلى عام 2004، كما اشترك في مناسبات فنية يغلب عليها طابع الجمع بين الشعر والرسم. وفي سياق تفسيره لعلاقة الفنين يستشهد أزغاي بمقولة للشيخ محمد عبده وردت في فتوى كان موضوعها "الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها" يقول فيها "الرسم ضرب من الشعر الذي يُرى ولا يُسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى".

"حيلتك في استدراج الجمال
كانت إيماءة باهظة
في بضاعة لا تؤكل
ارتجاجا يغطي الهدوء
الذي يكذب".

أزغاي هو وريث اتجاه فني مغربي يقوم على الاختزال. وهو ما ينسجم مع طريقته في إحالة العالم إلى نسيجه الشعري الذي يستند أصلا على التقاط لحظة التوتر. وهي لحظة خاطفة، خفيفة الوطأة بالرغم من حمولتها الثقيلة.

لوحة للفنان فؤاد شردودي

لوحة للفنان عبدالله الهيطوط

● ينشر كاملا على الموقع
● ينشر بالاتفاق مع «الجديد» الثقافية الشهرية اللندنية